

الخطاف

محمود سالم



الخطاف

تأليف
محمود سالم



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٨١٢ ٩

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

٧	من هم الشياطين الـ «١٣»؟
٩	أبطال هذه القصة
١١	التجارة السوداء!
١٥	الموت ... فوق شواطئ القارة السوداء!
٢١	مفاجأة ... قاسية!
٢٥	مزيد من الحظ السيئ!
٣١	رقصة الموت!
٣٥	مرة أخرى في الأسر!
٣٩	فوق جزيرة الشيطان!
٤٣	المعركة الأخيرة!

من هم الشياطين الـ «١٣»؟

إنهم ١٣ فتى وفتاة في مثل عمرك، كلُّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السَّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يره أحد، ولا يعرف حقيقته أحد. وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

- رقم «١»: «أحمد» من مصر.
- رقم «٢»: «عثمان» من السودان.
- رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.
- رقم «٤»: «هدى» من المغرب.
- رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.
- رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.
- رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.
- رقم «٨»: «فهد» من سوريا.
- رقم «٩»: «خالد» من الكويت.
- رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.
- رقم «١١»: «قيس» من السعودية.
- رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.
- رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.
- رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

التجارة السوداء!

رَحَّبَ رقم «صفر» بالشياطين، ثم ساد بعد ذلك سكون للحظاتٍ قليلة بعد كلماته. كانت بداية الاجتماع بدايةً تقليدية في داخل قاعة العرض السينمائي بكهفِ الشياطين السري ...

لم يكن الاجتماع مُلحًا أو عاجلاً ... وهو ما دلَّت عليه كلمات رقم «صفر»، من خلال عبارات الترحيب بالشياطين الستة الذين اقتصر عليهم الاجتماع. تَلَفَّت «عثمان» حوله ... كان على يمينه «أحمد» و«هدى» ... وفي الخلف جلس «بو عمير» و«مصباح» و«زبيدة». فَكَّرَ «عثمان» في أن المهمة القادمة لا بد أنها ستقتصر عليهم هم الستة فقط ...

في نفس الوقت فَكَّرَ «أحمد»: لماذا لم تنضمَّ إليهم «إلهام» في ذلك الاجتماع؟ ... إن عدم انضمامها إليهم يعني أنها لن تُشارك في المهمة القادمة. كانت المغامرات التي اشترك فيها «أحمد» بدون «إلهام» قليلة ... وقد اعتاد أن يشاركها في أغلب المغامرات، إن لم تكن كل المغامرات السابقة ... فلماذا لم يضمَّها رقم «صفر» إلى أفراد المهمة القادمة ... المجهولة؟ وتدرّجياً أظلمت قاعة العرض السينمائي ... بدون أن يتحدَّث رقم «صفر» مرةً ثانية ...

وانكشفت الشاشة البيضاء العريضة أمام الشياطين الستة عن شاطئ ساحلي ... كانت أشجاره ونباتاته الكثيفة إلى الداخل، توحى بأنه شاطئ استوائي ... وأنه يُطل على أحد المحيطين الكبيرين ... الأطلنطي أو الهادي.

ودارت الكاميرا لأعلى، مُصَوَّرة قمم رءوس الأشجار الضخمة الماردة، وقد تلاصقت تلك القمم وتشابكت كأنها نبت ضخمة أخضر خرافي في الحجم، له ملايين الأفرع والسِّيقان التي نبتت من باطن الأرض.

ثم هبطت عين الكاميرا لأسفل، وراحت تنزل فوق جذوع الأشجار، مثل قط بري ماهر، يستعد للانقضاض على فريسته.

ثم دَوَّى قرع للطبول من أحد الأركان ... طبول كان لها وَقْعٌ خاص، وترنيم مُعَيَّن ... ابتسم «أحمد» وتأكد من تخمينه ... كان المشهد يُصوِّر سواحل إحدى الدول الأفريقية المُطلّة على المحيط الأطلسي الاستوائية ... وكانت الطبول أفريقية ... واستطاع «أحمد» أن يقرأ دقاتها وقرعها ... كانت الطبول تدعو لحفل قريب يتزوَّج فيه ابن زعيم القبيلة من أجمل بناتها ...

واقتربت الكاميرا محاذرةً كاشفة عن ساحة واسعة، في أركانها راح بعض الزنوج يضربون فوق الطبول التي لم تكن إلا جذع شجرة عريض مُجَوَّف من الوسط ... وفي الناحية الأخرى ارتصَّ العشرات من أبناء القبيلة الذين راحوا يتابعون العرض الراقص الذي تقوم به بعض فتيات القبيلة وشبابها، والذين صبغوا وجوههم وغطّوا أجسادهم بالريش والعقود المصنوعة من أسنان التماسيح، وجماجم النسانيس الصغيرة ... أمّا زعيم القبيلة العجوز، فجلس فوق مقعد ضخم، وقد غطّى كتفيه برداء من جلد النمر ... على حين جلس ابنه القوي الأسود اللون على يمين والده وتحت أقدامه ... دلالة على الطاعة والاحترام ...

ودقَّ قلب «عثمان» بشدة، وبدأ يتذكَّر شيئاً ما ... كأنها ذِكْرى بعيدة قادمة من أعماق الماضي، من مئات السنوات البعيدة التي لم يشاهدها بعينه ... ولكنه قرأ وسمع عنها مئات المرات ... وكانت حكايات تلك الفترة الدموية البغيضة على لسان أجداده وجداته ...

فجأةً دَوَّى صراخ ... وتبعثر شمل ونظام الراقصين ومن يدق الطبول، عندما اندفع مجموعة من القراصنة ذوي الوجوه البيضاء، والأسلحة النارية في أيديهم ... ودوّت أصوات الطلقات ... وزادت الصرخات وأصوات الرعب ... واندفع مجموعة من محاربي القبيلة برماحهم نحو البيض، ولكن، وقبل أن يلقوا برماحهم، سقطوا قتلى برصاص القراصنة ... وانتهت المعركة سريعاً ... وكانت نتيجتها عشرات القتلى من شباب القبيلة ... وعشرات آخرين من الأسرى.

كان الأسرى كلهم من الشبان الأقوياء، ومن ضمنهم ابن ملك القبيلة ... وقد رُصوا جميعاً في صفٍّ واحد، وقُيدوا بالسلاسل الحديدية في أعناقهم.

وبدأ المشهد الحزين عندما راحت تلك السلسلة الآدمية الطويلة، المكبلة بسلسلة حديدية، تخترق طريقها نحو الشاطئ الساحلي القريب.

وهناك بالقرب من الشاطئ، كانت تقف سفينة شراعية كبيرة، وقد أفردت أشرعتها استعدادًا للإبحار ... وبواسطة زوارق صغيرة تمَّ نقل الأسرى إلى السفينة الكبيرة، حيث رُصوا جميعًا في مكانٍ بِقاع السفينة، وتركوا مُقيدين بالأغلال كالحيوانات، ثم شرعت السفينة تعبر المحيط جهة القارة الأمريكية.

وجاء صوت رقم «صفر» لبشَق الصمت الثقيل الكئيب الذي اعتصر قلوب الشياطين للمشهد الدامي الحزين ... وقال: ما رأيتموه أمامكم مشهد سينمائي ... ولكنه حدث بكل تأكيد منذ أكثر من ثلاثمائة عام أو أكثر ... حدث هذا المشهد آلاف المرات، وكان ضحيته الملايين من الأفارقة الشبان الذين اختطفتهم القراصنة من على سواحل بلادهم، وقادوهم أسرى إلى بلاد أخرى بعيدة ... إلى أمريكا بالتحديد ... إن هذا المشهد السينمائي جزء من مسلسل «الجزور» الشهير ... ذلك المسلسل الذي كتب قصته الكاتب الأمريكي الزنجي «أليكس هيلي» ... وصوّر فيه كيف اختطف القراصنة وتُجار العبيد الملايين من الأفارقة الشبان، ونقلوهم إلى أمريكا؛ ليقوموا هناك بزراعة القطن؛ فقد كانت أمريكا وقتها قارةً جديدة، وعدد سكانها قليل ... واهتدى تفكير سُكانها الشيطاني إلى جلب العبيد من السواحل الأفريقية المقابلة لقارتهم؛ لاستغلالهم في زراعة القطن وتعمير البلاد ... إن «أليكس هيلي» الأمريكي هو أفريقي الأصل ... وجذوره تمتد إلى إحدى أشهر القبائل الأفريقية، حيث كان أحد جدوده ملكًا لبعض هذه القبائل ... قبل أن يتم اختطاف كل أفراد القبيلة للعمل كعبيد في أمريكا ... وهو الأمر الذي انتهى بالحرب الأهلية من ذلك الاستعباد الذي كانوا يعيشون فيه ... وانتهى الأمر بتحريرهم فعليًا، وانتصار الشماليين، ولكن بعد أن مات الملايين من الأفارقة البسطاء، الذين لم يكونوا يملكون قوة البارود والسلاح، ليدافعوا به عن أنفسهم ضد هؤلاء القراصنة والغزاة ... حيث كان الأفريقي الشاب القوي الذي يصل سالمًا إلى أمريكا يُباع بعشرات الدولارات، هي ثمن الحياة البشرية ... وفي مقابل كل أفريقي مختطف كان يصل إلى أمريكا سالمًا ... كان هناك تسعة آخرون يموتون في الطريق بسبب المرض والجوع والبرد ... إن ما تعيشه أمريكا الآن من تقدّم وازدهار ومدنية ... تدين به إلى هؤلاء الملايين من الأفارقة البسطاء الذي دفعوا حياتهم وحرّيتهم ... ثمنًا لذلك.

وصعد الدم إلى رأس «عثمان» حارًا ملتهبًا ... كان يعرف تلك القصة، وقرأ قصة «الجزور»، وشاهد المسلسل المأخوذ عنها ... ولطالما سمع حكايات في طفولته عن بشاعة

هؤلاء القراصنة والمستعمرين، الذين كان ضحيتهم ما لا يقل عن ثلاثين مليوناً من الأفريقيين.

وفكّر مندهشاً: ولكن ... ما الداعي إلى أن يسرد رقم «صفر» تلك القصة القديمة المريرة ... المعروفة لهم؟!

جاء صوت رقم «صفر» يقول: لقد تحرّرت كل الدول الأفريقية من الاستعمار الذي نهب خيراتها، ما عدا دولة «جنوب أفريقيا» ... ونحن متأكّدون أن أهلها وأصحابها الأصليين سوف يُحرّرونها من حكم الاستعمار الجاثم على صدرها ... لتصبح القارة السمراء بأكملها ملكاً لأهلها ... ولعلكم تتساءلون الآن ... لماذا أُعيدُ على مسامعكم تلك القصة عن اختطاف الأفارقة، وتجارة العبيد السود، والتي انتهت منذ نهاية القرن الماضي؟! ... لقد انتهت تجارة العبيد حقّاً، وتوقّف النزيف البشري للقارة السمراء بعد أن أدان العالم كله الرّق والاستعباد منذ وقت طويل ... ولكن ...

ساد صمت كان الشياطين يسمعون فيه أصوات تنفّسهم، وكانت الكلمة التي نطق بها رقم «صفر» أشبه بوحز إبرة حادة دفعت انتباه الشياطين إلى التنبّه بشدة، ولم يستطع «عثمان» تحمّل الصمت أكثر من ذلك، فقال رغماً عنه: هل عادت تجارة العبيد الأفارقة مرةً أخرى؟!

أجابه رقم «صفر»: لا، لقد اختفت تجارة العبيد منذ وقت طويل ... ولكن حدث ما هو أسوأ لإنسان أن يتصوّر حدوثه، ونحن على مشارف القرن العشرين! ...

وصمت رقم «صفر» ... وساد القاعة توتر قاتل، وقد تصاعد انتباه الشياطين إلى القمة وهم يتساءلون: تُرى، ما هو ذلك الأمر البشع الذي صار يهدّد سكان شواطئ القارة السمراء؟!

الموت ... فوق شواطئ القارة السوداء!

قال رقم «صفر»: البداية كانت منذ أكثر من عام ... ووقتها لم يكن الأمر ملفتاً للنظر؛ لأنه لم يأخذ شكل الظاهرة ... ولكن تكرار تلك الحوادث جعلتنا ننتبه، ومن ثم نكتشف السر الكامن خلفها ... فمنذ حوالي عام، وأمام شواطئ «سيراليون» المطلة على المحيط الأطلنطي، كان هناك مجموعة من الصيادين الذين يعملون فوق قوارب بدائية مصنوعة من الخوص والبوص ... ويستخدمون الشباك اليدوية في صيدهم ... هؤلاء الصيادون كان عددهم يصل إلى الخمسين، وكانوا يستقلون عشرة زوارق اتجهت بهم جميعاً على مسافة لا تزيد عن خمسة كيلومترات عن الشاطئ. كان ذلك في الصباح الباكر ... وعندما لم يُعد هؤلاء الصيادون وقت الغروب، خرج أهلهم وأقاربهم للبحث عنهم ... ولكنهم لم يعثروا على أيٍّ من هؤلاء الصيادين ... وكل ما وجدوه هو القوارب البدائية في قلب الماء، وقد ذهب بها التيارات المائية وشتَّتتها في كل اتجاه ... والمدهش أن هذه القوارب كانت شباكها مملئةً بالسلك ... ولكن أين ذهب أصحاب هذه القوارب؟ هذا ما لم يعرفه أحد وقتها.

مصباح: من المحتمل أن يكون هؤلاء الصيادون قد غرقوا بسبب بعض الدوامات البحرية ...

رقم «صفر»: لقد كان هذا الاحتمال قائماً ... وبفحص التيارات المائية في تلك المنطقة، ثبت عدم وجودها لقربها من الشاطئ ... وحتى لو كانت الدوامات أو التيارات المائية هي التي أغرقت هؤلاء الصيادين ... لكانت زوارقهم قد اختفت معهم أيضاً وغرقت. وانشغلت السلطات المسؤولة ببحث الحادث ... ولكنها لم تهتدِ إلى أي تفسير له.

أحمد: ولكنه تكرر ... أليس كذلك؟

رقم «صفر»: نعم ... وبصورة مشابهة وإن اختلف الموقع ... فعلى مسافة مئات الكيلومترات من الحادث الأول، وبالقرب من شواطئ «ساحل العاج»، كانت هناك سفينة

صيد كبيرة تعمل بصيد السمك من المحيط ... وعندما خرجت تلك السفينة للصيد، وقبل أن تنقضي ساعة واحدة على خروجها، حتى كان مركز المراقبة على الشاطئ يتسلم رسالة غريبة تقول: هذا مستحيل! إنهم يحاصروننا ... سوف يخطفوننا ... ثم انقطعت الرسالة ... وعندما أسرع وحدات النجدة إلى مكان السفينة، وجدوها ساكنة فوق صفحة الماء على مسافة عشرين كيلومتراً من الشاطئ ... ولم يكن فيها فرد واحد من الصيادين أو الملاحين ... ولم يكن هناك أي أثر لهم، كأنهم تبخروا في الهواء، أو ذابوا في الماء، بالرغم من أن عددهم كان يزيد عن المائة شخص.

زبيدة: هذا أمر عجيب جداً! ... وأين اختفى رُكاب السفينة؟

رقم «صفر»: هذا ما حاولت سلطات الشرطة في «ساحل العاج» الوصول إليه، وبعد أن أجرت تحقيقاً موسّعاً، ثبت فيه أن أي سفينة لم تقترب من السفينة المنكوبة، وبالتالي فلم يشاهد أحد ما جرى ... ولا عرف أحد من هؤلاء الذين قال عنهم عامل اللاسلكي بأنهم يحاصرونهم ... وسوف يخطفونهم ... وإن كان قد ثبت أن جهاز اللاسلكي قد تحطم برصاصة ... ولا شك أن المختطفين هم الذين أطلقوا الرصاص على جهاز اللاسلكي، حتى لا يكمل العامل بث بقية الرسالة، وكشف هوية الخاطفين.

وقلب رقم «صفر» بضعة أوراق أمامه، ثم قال: قبل أن ينقضي أسبوعان على ذلك الحادث ... وقع حادث آخر أكثر غرابةً وشذوذاً ... هذا الحادث لم يقع في قلب المحيط كالمرتين السابقتين، بل وقع في قلب القارة السمراء نفسها ... وإن كان لم يبتعد كثيراً عن الشاطئ ... ففي المنطقة المسماة بغينيا البرتغالية، أو ما يطلق عليها «غينيا بيساو» ... هذه المنطقة استقلت عن البرتغال عام ٧٤، وسكانها لا يتعدون نصف مليون نسمة، يتناثرون فوق شواطئها المكونة من عدة جزر وسهول قليلة على الساحل ... وهي منطقة شبه بدائية لا تزال تكافح من أجل الارتقاء والتقدم، بعد أن تركها البرتغاليون، بعد أن استعبدوها واستنزفوا خيراتها ... هذه المنطقة يعيش أهلها حياةً بدائية، يتعيشون من الزراعة وصيد السمك حول الجزر، حتى إنهم لا يرحّبون كثيراً بالصيد في المحيط، أو الابتعاد بزوارقهم في قلبه رهبةً وخوفاً ... وربما يفسّر هذا سر وقوع اختفاء بعض سكان هذه المنطقة فوق إحدى الجزر الكثيرة التي تتكوّن منها هذه المنطقة.

هدى: وكيف وقع هذا الحادث هذه المرة؟

رقم «صفر»: لقد اختفت قرية بأكملها ... قرية يزيد تعدادها عن مائتي نسمة، ما بين أطفال ورجال وعجائز ... كلهم اختفوا جميعاً ... كانت القرية عامرةً بسكانها من الأهالي البدائيين في المساء.

وفي الصباح، لم يكن هناك أي أثر لهؤلاء السكان، وكانت قدورهم موضوعةً ساخنة، وبها الطعام، وملابسهم معلقة داخل أكواخهم ... كان كل شيء موجودًا في مكانه ... عدا سكان القرية ... اختفوا جميعًا بلا أثر ... كأنما انشقت الأرض وابتلعتهم، أو طاروا في الهواء.

صمت رقم «صفر» ... وهتفت «زبيدة»: هذا مُذهل ... وهو أمر لا يُصدق!
بو عمير: كأنما جاء طبق طائر من الفضاء واختطف هؤلاء البدائيين!
أحمد: أو ... لعلهم اختفوا بإرادتهم ... كنوع من أنواع الطقوس الدينية؛ ففي مثل هذه المجتمعات البدائية، تحتلُّ الخرافات جانبًا كبيرًا من معتقدات السكان ... وسيسيطر السحرة على الأهالي، فيمكنهم أن يُقنعوهم مثلاً بالهجرة إلى مكان آخر ... أو حتى بالموت.
قال رقم «صفر»: هذا الاحتمال كان واردًا ... لولا وجود آثار مقاومة في نفس المكان ... رمح مكسور ... وبضعة رصاصات من بندقية حديثة استقرت في قلب أحد السكان ... والذي عُثر عليه غريقًا في الماء على الشاطئ ... وبالطبع، فإن هذا ينفي فكرة أن الأمر بسبب طقوس دينية بدائية ... لأن أي ساحر في ذلك المكان لا يمتلك بندقية سريعة الطلقات ... عثمان: إذن فقد كان هناك نوع من الاختطاف لسكان هذه القرية البدائية؟
رقم «صفر»: هذا صحيح تمامًا ... وهو ما جعل السلطات بطول شواطئ الساحل الغربي الأفريقي تتنبه إلى تلك المسألة ... فحتى ذلك الوقت، وقعت ثلاثة حوادث اختطاف، أو بمعنى أدق «اختفاء» ... وقد بعثت الريبة في نفوس المسؤولين، وسلطات الأمن في دول غرب أفريقيا ... المطة على ساحل المحيط الأطلنطي ... مما جعلها تتعاون معًا من أجل حراسة الشواطئ من ذلك الخطر الغامض المجهول الذي يختطف الأهالي ... دون أن يترك أثرًا ما ... أو يشاهده إنسان.

تساءلت «هدى»: وهل توقفت حوادث الاختطاف بسبب تلك الرقابة؟
رقم «صفر»: لقد اختفت لفترة قصيرة ... ثم تكررت مرةً أخرى في مكان غير متوقع في الجنوب بشواطئ «ناميبيا» ... تلك الدولة التي نالت استقلالها أخيرًا ... ولم يكن أحدٌ يتوقع أن حوادث الاختطاف ستصل إلى الجنوب بتلك الصورة ... وفي الواقع إن الحادث كان مختلفًا في أن ضحاياه كانوا مجموعةً من رعاة الأغنام، كانوا يرعون أغنامهم فوق الشريط الساحلي الأخضر بحذاء الشاطئ، عندما اختفى هؤلاء الرعاة ... وتشنت قطيعهم في كل اتجاه.

عثمان: لقد احتاط الخاطفون لأنفسهم، فوزعوا دائرة عملهم الإجرامي.

رقم «صفر»: هذا صحيح ... وبسبب ذلك تشبَّتت جهود الباحثين عن هؤلاء الخاطفين المجهولين بسبب اتساع رُقعة البحث التي تكاد تغطِّي سواحل الشاطئ الغربي لأفريقيا ... ثم تَكَرَّرت حوادث الاختطاف بطول الساحل ... ولم تنجُ منه دولة واحدة من دول غرب أفريقيا ... وبلغ عدد الضحايا أكثر من ألف شخص.

بو عمير: هذا مُذهل ... كأن الأمر يتعلَّق بأشباح يخطفون هؤلاء المساكين، ويطيرون بهم في الهواء.

رقم «صفر»: بل يغوصون بهم في قلب الماء ... هذا ما اكتشفناه أخيراً.

قالها رقم «صفر» في هدوء ... ولكن كلماته كانت مثل قنبلة انفجرت في وسط الشياطين ... وصاحت «هدى»: هل قام المختطفون بإغراق هؤلاء الأفريقيين المساكين في المحيط؟!

رقم «صفر»: لا ... ليس هذا المقصود بأن المختطفين يغوصون بضحاياهم في قلب المحيط. إن وجود غواصة يُفسِّر الأمر تماماً.

أحمد: هذا مذهل ... إذن فهؤلاء الخاطفون يمتلكون غواصة ... إن هذا يفسِّر ظهورهم المفاجئ بزوارق وسفن الصيد في قلب المحيط؛ لأنهم يخرجون من الماء فجأةً بالغواصة ... ويُحاصرون ضحاياهم، ويلقون القبض عليهم، ويتم اختطافهم بسهولة، بفضل أسلحتهم المتقدِّمة.

عثمان: ولا شك أن نفس الشيء حدث لسكان القرية في «غينيا بيساو»، وإن كان الخاطفون قد غادروا غواصتهم قريباً من الجزيرة، ثم اختطفوا السكان وقادوهم إلى الغواصة عبر القوارب البدائية، التي يملكها هؤلاء السكان البسطاء ... وهو ما حدث لرعاة الأغنام في «ناميبيا».

رقم «صفر»: هذا صحيح ... وهو ما حدث تماماً ... وإن لم نتوصَّل إليه إلا مؤخراً.

أحمد: ولكن لماذا؟! ما هو غرض هؤلاء الخاطفين؟! ما الذي يفعلونهم بضحاياهم؟! ولماذا يتكبَّدون كل هذه المشقة والتكلفة؟! ... ما الفائدة التي تعود عليهم من ذلك المسلك الإجرامي؟!

قال رقم «صفر» في هدوء: لا شك أن الفائدة ستكون واضحةً أمامكم إذا عرفتم أن ثمن الأفريقي المختطف الواحد يصل إلى نصف مليون جنيه.

صاح «عثمان» في غضب: لماذا؟! ... هل عادت تجارة العبيد من جديد؟

وانتقدت عينا «عثمان» في غضب شديد كأنهما توشكان أن تطلقا شرًا منهما ... ونظر إليه «أحمد» في هدوء كأنه يدعوه لتمالك أعصابه، وكان «أحمد» يتوقع ما هو أسوأ ... وما هو أبشع من مجرد تجارة العبيد الأفارقة.

قال رقم «صفر»: لا بد أنكم سمعتم عن بنوك الأعضاء البشرية ... ففي ظل التقدم العلمي والطبي الحادث في العالم الآن ... فقد أمكن زراعة القلوب والرئة، بل والعيون والكلى ... صار كل عضو معطوب في الإنسان يمكن استبداله بعضو آخر سليم ... وبدأ الأمر يأخذ شكل تجارة؛ فمثلاً نجد أن هناك بعض الناس يبيعون إحدى كليتَيْهم مقابل المال ... أو شخصاً يتبرّع بقلبه أو بعينه بعد الموت، ولكن بما أن ذلك لا يكفي الطلب المتزايد على الأعضاء البشرية السليمة ... من أجل ذلك ... كانت تلك الظاهرة الرهيبة البشعة ... ظاهرة اختطاف الأفارقة البدائيين ... لتحلّ أعضاؤهم السليمة في أجساد المرضى من كل دول العالم.

أغمضت «زبيدة» عينيها في ألم قائلة: هذا بشع ... كيف يتحوّل إنسان إلى مجموعة من قطع الغيار للآخرين؟ ... كيف نبيع حياة إنسان من أجل إنقاذ حياة إنسان آخر قدره أنه مُصاب بمرض؟

رقم «صفر»: إن المال هو السبب ... هو مصدر أكثر الشرور في هذا العالم ... فإذا عرفتم أن ثمن القلب السليم في بنوك الأعضاء البشرية يصل إلى مائة ألف جنيه، وثمان العین يصل إلى خمسين ألفاً، والكلى إلى عشرين ألفاً ... من أجل ذلك يتضح تماماً الهدف من خطف هؤلاء المساكين الغافلين عمّا يدور حولهم في العالم من شرور، يكونون هم ضحيتها ... ضحية براءتهم في عالم فقد براءته.

لمعت عينا «أحمد» بغضب جارف ... وارتعدت أصابع «عثمان» وهو يحاول السيطرة على مشاعره ... وجاءت كلماته مشحونة بالغضب المرير، وهو يتساءل: متى ستبدأ مهمتنا؟ بهدوء أجابه رقم «صفر»: الآن ... فوراً ... إن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار ... سوف تستقلون طائرة الشياطين الخاصة من خارج المقر، وستهبط بكم الطائرة بالقرب من ميناء «طنجة» المغربي ... ومن هناك ستستقلون غواصةً مجهزة بكل أساليب القتال في الأعماق؛ فأنتم قادمون هذه المرة على مهمة ... أشبه بمهمة حرب ... دفاعاً عن قارتكم السمراء ... الطيبة ...

مفاجأة ... قاسية!

وقف الشياطين الستة أمام شاطئ مدينة «طنجة»، ذات الطابع الخاص بطراز مبانيها ومساجدها ذات المنمّقات الإسلامية الفريدة.

وإلى الأمام على مسافة كيلومترات ليست كثيرة، ظهر الشاطئ الآخر لأوروبا ... وجبل طارق الذي يمتد برأسه نحو الميناء المغربي، وكأنه يوشك أن يعانقه ... حيث يفصل مضيق جبل طارق ما بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلنطي ...

وكانت كلمات رقم «صفر» لا تزال ترنّ في أذن «أحمد» ... بأنهم مُقبلون على معركة دفاعاً عن قارتهم السمراء ... وفي تلك اللحظة فقط، عرف «أحمد» لماذا لم يضمّ رقم «صفر» «إلهام» إلى تلك المهمة.

كانوا ستة ... «أحمد»، و«عثمان»، و«هدى»، و«زبيدة»، و«مصباح»، و«بو عمير»، وكلهم ينتمون إلى بلاد تحتضنها قارة أفريقيا السمراء.

أحمد من مصر ... «عثمان» السودان، «هدى» المغرب ... «زبيدة» تونس ... «مصباح» ليبيا ... «بو عمير» الجزائر ...

كانوا هم أبناء القارة السمراء الوداعة ... وكان عليهم القتال لحماية أبنائها من أن يُباعوا كأجزاء بشرية ... وتنفّس «أحمد» بعمق ... كان يتطلّع إلى القتال وقد التهبت حواسه ... وجاء من الخلف صوت «عثمان» يقول: هيا بنا؛ فلا وقت للضياع.

كان هناك زورق صغير ينتظر على الشاطئ بدون أن يلفت الأنظار إليه ... وكانت الخطة تقتضي أن يستقلّوا الزورق، ويبحروا به إلى مسافة مُعيّنة في اتجاه الغرب في المحيط الأطلنطي ... حيث تكون غواصتهم في الانتظار ...

وبالفعل استقلوا الزورق ... وأدارت «زبيدة» مُحركه، فانطلق في هدوء مبتعداً عن الميناء المغربي وبوابة أفريقيا المطلة على أوروبا ... وعندما غادر الزورق الميناء، أطلقت «زبيدة» لسرعته العنان كأنها تتعجل المهمة القادمة.

وضغط «عثمان» على كرتة السوداء الجهنمية وهو يقول لـ «أحمد»: هل تظن أننا سنعثر على تلك الغواصة الجهنمية، وبها عصابة المختطفين المجرمين؟
أحمد: أرجو ذلك ... فإن هناك ثأراً يجب تسويته.

عثمان: ولكن ... ألا يوحى لك حدوث عمليات الاختطاف في غرب أفريقيا بشيء خاص؟
أحمد: بالطبع ... إن هذا يعني أن مركز هؤلاء المختطفين قريب من الشاطئ الغربي لأفريقيا ... ولعل مركزهم يكون في الشاطئ المقابل بسواحل قارة أمريكا الشمالية أو الجنوبية، وإن كان هذا الاحتمال ضعيفاً ... لأن ظهور غواصة أو دخولها تلك المياه الإقليمية لهذه الدول سيدفعها إلى مطاردتها للكشف عن هويتها ... إن أفضل مكان يستتر به المجرمون، ويمارسون من خلاله نشاطهم، لا بد وأن تكون إحدى الجزر النائية المتناثرة في قلب المحيط الأطلسي ... حيث لا يمكن أن يشك فيهم إنسان.

عثمان: أعتقد ذلك ... ولكن المحيط الأطلسي يزرح بالآلاف الجزر النائية، وكلها تصلح لأن تكون قاعدةً لهؤلاء المجرمين، خاصةً وأن أي غواصة حمولتها لن تحتمل وجود مائة فرد زائدين عن حاجتها لوقت طويل، خاصةً بسبب حاجتهم إلى طعام وغير ذلك ... ممّا يستتبع أن يكون مركز الخاطفين في إحدى الجزر القريبة من السواحل الأفريقية، أو على مسافة معقولة منها.

أحمد: إننا لن نبحث عنهم في داخل هذه الجزر بالطبع؛ فهذه مهمة مستحيلة، وسوف تستغرق وقتاً طويلاً ... من الأفضل لنا هو مراقبة الساحل الغربي للقارة ... ولعل الحظ يكون حليفنا فنعثر على غواصة المجرمين عند محاولة اقترابها من الشاطئ لممارسة عملها الإجرامي.

عثمان: إن المسألة بحاجة إلى قَدْر من الحظ الحسن ... وأظن أنه سيكون حليفنا. هذأت «زبيدة» سرعة الزورق حتى توقّف تماماً وسط الماء ... وكانت صفحة المحيط على مرمى البصر، في كل اتجاه حولهم، زرقاء لامعة كأنها سطح مرآة سحرية مصقولة لا يخدشها شيء ... ووقف الشياطين صامتين يراقبون سطح الماء، وكأن على رؤوسهم الطير. انقضت دقائق قليلة بدون أن يظهر شيء، وتساءل «مصباح»: هل أنت واثقة من أننا في المكان المضبوط يا «زبيدة»؟

وقبل أن تجيب «زبيدة» ... انشقق سطح المحيط بصوت هادر، وبرزت مقدمة الغواصة لأعلى ... واكتمل ظهور بقية بدنها كأنها حوت ضخمة قادمة من أعماق مملكته في قلب المحيط. جرى التبادل سريعاً ... واتجه رُكاب الغواصة وملاحوها إلى الزورق البخاري ... وأسرع الشياطين إلى قلب الغواصة.

وخلال دقائق قليلة كانت الغواصة الصغيرة تعاود غوصها في قلب الماء ... وتشق قلبه ... وكانت من الداخل برغم صغر حجمها الذي لا يزيد عن عشرين متراً طويلاً ... تشتمل على كل وسائل الراحة في داخلها ... وكانت مُجهَّزة بحيث يمكن لمجموعة صغيرة مُكوَّنة من ثلاثة أفراد قيادتها، بفضل القيادة الآلية وبرمجتها الخاصة التي لا تحتاج إلا لأقل عدد من الملاحين.

واستقرَّ «أحمد» و«عثمان» و«زبيدة» في حُجرة القيادة، وقد انكشف أمامهم قلب المحيط فوق شاشة الرادار ... والتي كانت ترصد أسراب الأسماك وأصواتها ... بل وحتى أصوات الطائرات بأعلى سطح الماء، بفضل «السونار» القوي بداخلها.

قال «أحمد»: إن أجهزة الرادار لدينا تكشف الماء حولنا حتى مسافة مائتي كيلومتر ... عثمان: أرجو ألا تكون غواصة الأعداء تمتلك مدًى أوسع للرادار ... وإلا تمكَّنت من رصدنا على مسافة أكبر بدون أن نرصدها أو نحس بوجودها.

واندفع «بو عمير» داخلاً وهو يقول: إن لدينا كمية من الذخيرة لا بأس بها من الطوربيدات وقنابل الأعماق ... بالإضافة إلى القنابل اليدوية والرشاشات والرصاص.

زبيدة: هذا حسن ... وبالنسبة للماء والأكسجين والطعام؟
بو عمير: يوجد هنا ما يكفينا لمدة أسبوعين كاملين بدون أن نُضطر إلى الظهور على سطح الماء.

أحمد: إن مهمتنا تعتمد على السرية المطلقة؛ فنحن لا نريد الظهور فوق سطح الماء إلا وقت الضرورة القصوى، أو عند المواجهة؛ حتى لا يكشف وجود غواصتنا عن طبيعة مهمتنا؛ فيأخذ أعداؤنا حذرهم منّا.

قال «عثمان» في تحدٍّ: بل إنني أريد أن نظهر ونكشف أنفسنا حتى يسارعوا بالهجوم علينا، فيكون انتقامنا منهم شديداً.

زبيدة: ولكن النتيجة قد تكون عكسية، فيسارعوا بالفرار والاختباء ... ونحن بالطبع لن نظل نبحث عنهم للأبد ... وبعد عودتنا سيعودون إلى الظهور مرةً أخرى، وممارسة عملهم الإجرامي ثانية ... إن «أحمد» على حق تماماً في واجب مراعاتنا الحذر، وعدم كشف أنفسنا.

مصباح: هناك سؤال يدهشني ... فهناك أكثر من دولة في غرب أفريقيا تمتلك غواصات حديثة ... والمفروض أن هذه الغواصات قادرة على تمشيط شواطئها، واكتشاف اقتراب أية غواصة مجهولة ورصدها ... فكيف كانت غواصة هؤلاء المجرمين تقترب، وتقوم بعملها الإجرامي بدون أن تلاحظها أو ترصدها الغواصات الأخرى؟

قالت «هدى» بقلق: لعل هؤلاء المجرمين يمتلكون في غواصتهم أجهزة تشويش على رادارات الغواصات الأخرى، فلا تشعر باقترابها أو ترصدها.

عثمان: وهل سيحدث لنا نفس الشيء؟

أحمد: هذا ما ستجيب عنه الساعات القادمة.

ووجه «أحمد» الغواصة لتبحر جهة الجنوب على مسافة تزيد عن مائة كيلومتر من الشاطئ الغربي للقارة السمراء. ومرّ وقت ... واختفت الإضاءة العادية، وأضيء النور الأحمر داخل الغواصة ... وكان هذا يعني أن الوقت في الخارج قد صار ليلاً.

وقالت «هدى» باسمه: لقد حان وقت إبدال نوبة القيادة والمراقبة.

واستعدّ «أحمد» و«عثمان» و«زبيدة» لمغادرة أماكنهم لتناول العشاء قبل النوم ... غير أن «أحمد» حدّق في شاشة الرادار ثم صاح: إن هناك طوربيدًا يتجه إلينا بأقصى سرعة، ويوشك على إصابتنا!

وقبل أن يفيق أحد الشياطين من المفاجأة القاسية، دوى صوت انفجار في الخارج ... وارتجّت الغواصة بشدة، وانطفأت أنوارها ... وتبعثر كل شيء بداخلها ... وهي تغوص إلى أسفل مثل حجر ثقيل، وقد راحت المياه تتدفّق من فتحة في جدارها الخارجي.

مزید من الحظ السيئ!

صاحت «زبيدة» في فزع: إن الغواصة تغرق. دعونا نغادرها في الحال!
أحمد: إنَّ تركنا للغواصة معناه الموت بسبب الضغط العالي للمياه حولنا ... إننا على عمق يزيد على ألف متر.

صاح «أحمد» في «عثمان»: أسرع بتشغيل مُولِّدات الطاقة الاحتياطية.
اندفع «عثمان» خارجًا من حُجرة القيادة ... ومَرَّت ثوانٍ كالدَّهر قبل أن يعود الضوء إلى المكان ... وتبدأ أجهزة الغواصة في العمل مرةً أخرى.

كانت شاشة الرادار أمام «أحمد» خاليةً لا أثر فيها لأية غواصة معادية أو قذائف أخرى ... فقال «أحمد» من بين أسنانه في غضب شديد: لقد خدَعنا هؤلاء المجرمون وأصابونا بدون أن يكشفهم رادارنا ... ولا بد أنهم يمتلكون أجهزة تشويش متقدِّمة جدًّا.
اندفع «بو عمير» صائحًا: إن الماء يتدفق إلى الغواصة من مكان الإصابة في المؤخرة.
أحمد: شغلوا الأبواب الاحتياطية.

بو عمير: لقد أصابها العطْب هي الأخرى وترفض التحرك ... ولو بقينا على هذا الوضع دقائق قليلة فسوف نغرق حتمًا ... وستتهشم الغواصة مثل لعبة ورقية بسبب ضغط الماء الرهيب في الأعماق.

اندفع «أحمد» خارجًا من حُجرة القيادة ... وجرى باتجاه مؤخرة الغواصة ... وقرب نهايتها كان هناك باب مصفح مغلقًا.

وقال «بو عمير»: هذا هو باب التصفيح الداخلي ... ولكن الأبواب الأخرى قد اخترقتها المياه.

أحمد: سوف أُغَيِّرُ باب التصفيح إلى قلب الماء المتدفق؛ فقد أتمكَّن من إغلاق الأبواب الأتوماتيكية.

صاح «مصباح»: سوف تغرق يا «أحمد».

أحمد: إننا مُعرَّضون للموت على أي حال.

وأُسرع نحو بذلة غوص قريية فارتداها، ووضع أنبوبة أكسجين فوق ظهره، وأخفى وجهه بقناع، وأشار إلى «مصباح» و«بو عمير» ...

وأخذ الاثنان يفتحان الباب المصفح ببطء، وانهمرت المياه من فتحة الباب الضيق، فأُسرع «أحمد» ينفذ منها إلى داخل الغرفة الغارقة بالماء ... وانكشفت الفتحة التي أصابها الطوربيد في جدار الغواصة ... كانت بقُطر نصف متر، والماء يتدفق منها للداخل ... والغواصة تواصل هبوطها السريع ...

نظر «أحمد» في ساعته ... كان أمامه خمس دقائق فقط، هي الوقت الفاصل بين النجاة أو الموت، بين نجاحه في إغلاق الأبواب الأتوماتيكية الواقعة أمام مكان إصابة الغواصة لمنع تدفق الماء من خلالها ... وإلا ...

لم يكن هناك أي وقت للضياع ... وأسرع «أحمد» نحو الأبواب الأتوماتيكية، وأخذ يتفحصها ... كان أحد الأبواب قد انبعج قليلاً بسبب إصابته بالطوربيد؛ ولذلك صار من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحريكه ... كان «أحمد» بحاجة إلى آلة حادة ليتمكّن من محاولة زحزة الباب وغلقه. وتلّفت حوله فلمح قطعة حديد كانت تمثّل إحدى شظايا الطوربيد المتفجر ... وأمسك «أحمد» بقطعة الحديد، وأخذ يحاول به تحريك الباب الثقيل. وتحطّم طرف القطعة دون أن يتحرّك الباب ... ولكن «أحمد» لم ييأس، وواصل محاولته ... وأخيراً تحرّك الباب ... تحرّك ببطء ... ونفرت عروق «أحمد» وهو يواصل محاولته بكل قوته.

فجأة أطلّت عينان صغيرتان من خارج الفتحة، ثم ظهر صف الأسنان الرهيب الحاد كالمنشار ... كانت سمكة قرش لا يقل طولها عن متر ونصف ... وقد راحت ترقب «أحمد» من الخارج بعينيها الخبيثتين، وكأنها تفكّر في دخول المكان ... وكان على «أحمد» أن يواصل محاولته بكل قوته.

وأخيراً انزلق الباب ليغلق مكان الفتحة المعطوبة ... ولكن بعد أن استقرّت سمكة القرش الرهيبة بداخل المكان.

جمد «أحمد» للحظة مذهولاً، وقد شلّته المفاجأة ... كان وجهاً لوجه أمام السمكة المتوحشة في مساحة لا تزيد عن أربعة أمتار ... ولم يكن يمتلك أي سلاح غير قطعة الحديد المحطّم في يده ... وبقية الشياطين لا يشعرون بما يحدث له ... وضربت سمكة القرش الماء بذيلها داخل الحجرة الممتلئة بالماء، ثم اندفعت نحو «أحمد» في توحّش ...

وأمسك «أحمد» بقطعة الحديد ... كانت هي سلاحه الوحيد ... وبسرعة غاص أسفل سمكة القرش، ثم طعنها بمقدمة القطعة الحديدية في بطنها ... وتدفَّق الدم من بدن السمكة التي أصابها هياج شديد ... واندفعت خلف «أحمد» ...

وتحاشى «أحمد» الأسنان الرهيبة، ووجَّه ضربةً أخرى للسمكة، ثم تدفَّق الدم في الماء من السمكة المتوحشة، وزاد جنون السمكة وتوحَّشها، وقد صارت تضرب الماء بذيلها في جنون، كأنما يسري فيها تيار كهربائي ... واندفعت السمكة للمرة الأخيرة نحو «أحمد» ... انزلقت قدم «أحمد» ... وسقط في ركن الحجرة الغارقة بالماء، واختلَّ توازنه، واندفعت السمكة في قوة رهيبة نحو «أحمد»، وقد فتحت فمها الرهيب عن آخره. وبكل قوته دفع «أحمد» بالقطعة الحديدية بداخل فك السمكة ... وانحشرت قطعة الحديد في حلق السمكة التي اندفعت للخلف بقوة كأنها ابتلعت جمرة نار ... وراحت السمكة تصطدم بالحائط في كل اتجاه كأنما فقدت توازنها، وعيناها الصغيرتان مفتوحتان عن آخرهما. وأخيرًا هدأت حركة السمكة ... حتى كُفَّت عن الحركة تمامًا ... وظهر الموت في عينيها ... أغمض «أحمد» عينيَّه في ارتياح ...

وانفتح باب الحجرة ... وتدفَّق الماء خارجًا سريعًا ... ووقف الشياطين الخمسة مذهولين أمام السمكة الصريعة ... وابتسم «أحمد» وأشار إليهم بعلامة النصر ... ثم خلع قناعه وقال باسمًا: كانت معركةً فريدة مع سمكة قرش في حجرة مساحتها أربعة أمتار ... لا أظن أن إنسانًا تعرَّض إلى مثل هذه المباراة من قبل.

ربت «عثمان» على كتف «أحمد» قائلاً: إن لك قدرة الشيطان بحق ... لقد قمت بعملين خارقيين في نفس الوقت ... إغلاق أبواب الطوارئ الاحتياطية، وقتل تلك السمكة المتوحشة. أحمد: فلنسرع بإخراج حمولة الغواصة من الماء والمؤن لنتمكَّن من الصعود لأعلى. وغادر الجميع المكان، وأسرعوا نحو حجرة القيادة ... وأفرغت الغواصة كل شحناتها من الماء الخاص باتزانها ... وبالمؤن من الطعام.

وارتفعت الغواصة قليلًا ... ثم توقَّفت عن الارتفاع مرةً أخرى. قال «مصباح» بقلق: إننا بحاجة للصعود إلى سطح الماء ... فالغواصة بحاجة إلى إصلاح.

هدى: ونحن لن نتمكَّن من البقاء طويلاً فيها بعد أن أفرغنا المؤن والأغذية ... بالإضافة إلى أننا سنكون معرَّضين للخطر مرةً أخرى إذا ما هاجمتنا غواصة الأعداء ... ووقتها لن نتمكَّن حتى من المناورة أو الهرب بسبب تعطل الأجهزة ...

قطَّب «أحمد» حاجيَّه مُفَكِّراً، ثم قال: ليس هناك غير حل واحد. والتفت إلى بقية الشياطين وهو يقول: سوف نتخلَّص من حمولة الغواصة من الأسلحة.

اعترض «عثمان»: ولكن ...

قاطعه «أحمد»: ليس هناك حل غير ذلك ... سوف نحتفظ ببعض الأسلحة الخفيفة كالرشاشات والقنابل اليدوية ... أمَّا الأشياء الثقيلة كالطوربيدات وقنابل الأعماق، فسنكون مُضطرين للتخلُّص منها ... ولن يمكننا حتى طلب نجدة من رقم «صفر»؛ بسبب إصابة أجهزة الإرسال وتعطلها.

ساد الوجوم وجوه بقية الشياطين ... واتجهت أصابع «أحمد» نحو الزر المتحكَّم بأبواب مخزن الأسلحة ... وتدفَّقت الأسلحة الثقيلة لتسقط من الغواصة إلى قاع المحيط ... وبدأت الغواصة ترتفع ببطء إلى أعلى ... وأخيراً استقرَّت فوق سطح الماء ... نظر «بو عمير» من نافذة الغواصة الذي يكشف خارجها، وتأمَّل المكان حوله ... كان الفجر يوشك على البزوغ بعد ليلة طويلة قضاها الشياطين داخل الغواصة المعطوبة ... ومن بعيد لاح شاطئ، فهتف «بو عمير» في راحة: إننا قريبون من الشاطئ، فحمدًا لله.

نظر «مصباح» إلى خريطة ملاحية أمامه، وقال: إننا أمام شواطئ «غينيا بيساو» بيساو ولا بد أن ما نراه أمامنا هو مجموعة الجزر التي تقع أمام شواطئها. أحمد: هذا لحسن حظنا ... إن هذه المنطقة نائية، ولا يوجد بها حرس سواحل، وبذلك سيكون من السهل علينا إخفاء غواصتنا بين خُلجانها حين إصلاح أجهزة الإرسال للاتصال برقم «صفر» ليرسل إلينا غواصةً أخرى ... أو لإصلاح هذه الغواصة. فلنحاول توجيه غواصتنا إلى الشاطئ.

عثمان: إن المحرَّك معطوب ... والمحرَّك الاحتياطي لا يعمل بكفاءة.

أحمد: فلنحاول على أي حال.

وقام الشياطين بتشغيل المحرك الاحتياطي ... وتحركت الغواصة قليلاً ... ثم توقَّف المحرَّك مرةً أخرى عن العمل ...

ترامق الشياطين في صمت وقلق. كانوا يريدون إخفاء غواصتهم قبل انبلاج نور الصباح ... وكأنَّ القدر يصر على معاندتهم ...

لكن الغواصة تحركت ... بلا محرَّك ... ونظر الشياطين إلى بعضهم زاهلين ... وصاح «عثمان» غير مصدق: إن الغواصة تتحرَّك بنا نحو الشاطئ!

ابتسم «أحمد» وقال: لقد نسينا عناية الله ... إن التيارات المائية في هذا المكان تندفع على شكل تموجات نحو الشاطئ ... وهذا لحسن حظنا.

وقبل أن تنقضي ساعتان ... كانت غواصة الشياطين تلمس الشاطئ الصخري المقابل ... وبمهارة استطاع الشياطين توجيه غواصتهم نحو أحد الخُلجان الصغيرة التي تتناثر الأشجار فوقه، فأخفت الغواصة بداخلها.

قال «مصباح»: لا بأس حتى الآن ... إن الأمور ليست سيئةً إلى درجة كبيرة.

هدى: سأحاول إصلاح اللاسلكي لإبلاغ رقم «صفر» بما حدث.

بو عمير: وأنا سأحاول إصلاح المحرّك ... ولحام الجزء المعطوب في الغواصة.

عثمان: أمّا أنا و«أحمد»، فسنحاول استكشاف هذا المكان.

زبيدة: سأتي معكما.

وحمل الشياطين الثلاثة: «أحمد»، و«عثمان»، و«زبيدة»، أسلحتهم الرشاشة الخفيفة من داخل الغواصة ... ثم ساروا باتجاه الغابات القريبة.

كان كل شيء بداخل الغابات صامتاً ... الأشجار الاستوائية العملاقة ... والطيور والبيغاوات ... والنسانيس الصغيرة ... كلها راحت تنظر إلى الشياطين الثلاثة بفضول ... تساءل «عثمان» بقلق: هل يمكن أن نكون قرييين من نفس المكان الذي قام القراصنة فيه باختطاف سُكان إحدى القرى من هذه الجزر؟

أحمد: من يدري؟ ... إننا لا نعرف المكان بالتحديد.

تلقت «زبيدة» حولها في قلق وهي تقول: إنني لا أحس بالأمان في هذا المكان ... وأشعر أن هناك عيوناً خفية تراقبنا.

عثمان: لا بد أنهم أهالي هذا المكان البدائيون ... إنهم دائماً لا يُرحّبون بالغرباء ... ولكنهم عادةً لا يبدؤون بالعدوان.

لكنه كان مخطئاً ... فما كاد يُنهي عبارته حتى صاح رغماً عنه، عندما اشتبكت قدمه بشيء ما، ووجد نفسه يطير في الهواء، وقد تعلّقت قدمه بحبل رُبط في قمة إحدى الأشجار العملاقة ... كان قد وقع في شرك ... والتفت «أحمد» و«زبيدة» ذاهلين من المفاجأة بسبب صرخة «عثمان» الذي اختفى من جوارهما كأنه طار في الهواء.

صاح «عثمان» من أعلى: إنني هنا ... أنقذوني.

وقبل أن يتحرّك «أحمد» و«زبيدة»، سقطت فوقهما شبكة ضخمة ثقيلة من ألياف الأشجار، فشلت حركتهما، ومنعتهما من الحركة ... وصار الاثنان بداخلها يتخبّطان

ويحاولان الخروج منها بلا فائدة. وفي الحال اندفع من خلف الأشجار مجموعة من السكان البدائيين شاهرين رماحهم، وقد تلطّخت وجوههم بالأصباغ، وتدلتّ العقود من صدورهم ... عقود من أسنان التماسيح، وأخرى من جماجم النسانيس وعظامها.

وصرخ البدائيون وهم يُشْهرون جِرابهم ... وأسْرعت «زبيدة» من داخل الشبكة ممسكةً بمدفعها الرشاش، وهي تُصوِّبه نحو الزنوج، ولكن «أحمد» أمسك بذراعها قائلاً: لا يا «زبيدة» ... لقد جئنا لإنقاذ هؤلاء البسطاء ... وليس لقتلهم ...

واندفع بعض الزنوج إلى أعلى ... فحملوا الحبل الذي يربط «عثمان» من قدمه، فسقط بداخل شبكة ثقيلة أطبقت عليه.

وأسرع السكان البدائيون يحملون أسراهم الثلاثة إلى مكان مجهول داخل الغابات ... وهم يُطلقون صرخات مفزعة ... بعد أن استولوا على أسلحة الشياطين.

رقصة الموت!

استغرق السير داخل الغابات أكثر من ساعة، وانتهى أخيراً وسط ساحة متسعة خالية من الأشجار، ارتصّ في أطرافها مجموعة من الأكواخ المبنية من الخوص ... وما إن ظهر مقاتلو القرية حاملين الأسرى الثلاثة، حتى تدافع بقية السكان خارجين من أكواخهم ... وأخذوا يُحدّقون في الشياطين الثلاثة في خوف وشك ... وظهر أحد السكان مرتدياً عباءة سوداء ... وكانت له عيون حادة النظرات ... أمّا وجهه المجعّد بشدة فكان يقطع بأن عمره لا يقل عن مائة عام.

وصاح ذو الوجه المغضن صيحة ذات معنى، فتراجع بقية أهل القرية عن الشياطين الثلاثة في فزع ... وقال «أحمد»: إنه يبدو ساحر القرية.

وأقبل رجل بدين يرتدي عدداً كبيراً من العقود الملوّنة حول صدره ... وقد تغطّى كتفاه بغطاء من جلد النمر ... وكان واضحاً أنه زعيم القبيلة ... وأخذ الاثنان يتهامسان ويتجادلان بصوت مسموع ... ثم أخرج الساحر من أحد جيوبه شيئاً فضياً لامعاً لوح به أمام بقية الأهالي، فزادت صرخاتهم وفزعهم، وانعكست أشعة الشمس فوق ذلك الشيء الذي يُمسك به الساحر ...

وهتفت «زبيدة»: إنها رصاصة.

أحمد: يبدو أننا وقعنا — لسوء الحظ — في مكان قريب من مكان القرية التي اختطفّت القراصنة سكانها.

عثمان: وهؤلاء الأهالي يظنوننا نفس الأشخاص الذين اختطفوا أهالي القرية الأخرى ... ولسوء الحظ فإننا نجهل لغتهم، ولا نستطيع إقناعهم بعكس ظنهم.

أحمد: إن مظهرنا الأوروبي وبشرتنا البيضاء، بالإضافة إلى أسلحتنا ... كل هذا سيجعل صعباً على هؤلاء الأهالي تصديقنا بأننا جئنا لإنقاذهم وليس لخطفهم وقتلهم.

زبيدة: وما العمل الآن؟

وفي نفس اللحظة أمسك ساحر القبيلة بأحد مدافع الشياطين الرشاشة ... وما إن ضغط فوق زناده، حتى اندفع منه سيل من الرصاص نحو إحدى الأشجار القريبة، فتهاوت ساقطة على الأرض.

وصرخ الساحر في فزع من انطلاق الرصاص ... واندفع الأهالي هاربين في كل مكان، وهم يظنون أن المدفع الرشاش شيطان يخرج الموت منه، وقال «أحمد» باسمًا برغم وجوده داخل الشبكة الثقيلة: إن الأمر يبدو كما لو كان لعبةً مسلية ... من الواضح أن هؤلاء السكان لم يحتكوا بالعالم الخارجي أبدًا، ولا يدرون عنه شيئًا.

قالت «زبيدة» في ضيق: هل سيستمر هذا الوضع طويلًا؟

أحمد: لا أظن ... إن هناك شيئًا ما سيحدث.

وبالفعل ... فقد أشار الساحر إلى بعض شبان القرية، وراح يتحدث إليهم في عصبية، فأسرع الشبان إلى بعض الأشجار المجوفة ... وراحوا يدقون فوقها بعصيان غليظة ... وأنصت «أحمد» إلى دقات الطبول باهتمام ... ثم ظهر تعبير من القلق على وجهه، وقال: إنهم يدعون بقية القبائل وسكان القرى المجاورة للحضور بأسرع وقت.

زبيدة: لماذا؟

ومرةً أخرى دُقت الطبول، وعلى الفور صاح «عثمان»: إنها دقات طبول الحرب!

هتفت «زبيدة»: سيحاربون من؟!

قال «أحمد» بهدوء: نحن بالطبع ... إننا في نظرهم بعض الأعداء، وهم يدعون القبائل الأخرى لتشهد عملية محاكمتنا، ثم إعدامنا.

زبيدة: هذا سخيف! ... سأحاول قطع هذه الشباك ومغادرة هذا المكان ... وإذا حاول أحد منعي فلن يكون مصيره إلا الموت.

وأخرجت من جيبتها سكينًا صغيرًا، أخذت تمرّق به الشبكة الثقيلة المحيطة بها ... ولكن ... وقبل أن تمرّقها بالكامل، انتبه إليها بعض المحاربين، فاندفعوا نحوها وهم يصرخون ويلوحون بحرابهم، ثم أسرعوا إليها ليقيدوا يديها وقدميها إلى عمود مقام وسط الساحة، ووقف المحاربون لحراستها برماحهم.

واندفع بقية المحاربين إلى «أحمد» و«عثمان»، وصاح «عثمان»: أعتقد أنه من حقنا الآن الدفاع عن أنفسنا.

هتف «أحمد»: لا يا «عثمان» ... تذكر أن «زبيدة» أسيرة في أيديهم، ومقاومتنا لهم معناها موتها.

واستسلم «أحمد» و«عثمان» للمحاربين الذين قيّدوهما بجوار «زبيدة» ... وعصّ «عثمان» شفتيه وهو يقول: يبدو أن المسألة أخطر ممّا نتصوّر.
أحمد: أرجو أن يكون بقية الشياطين قد سمعوا صوت طلقات الرصاص، فيسرعوا إلى نجدتنا.

عثمان: هذا إن لم يقم هؤلاء المحاربون بقتلنا أولاً.
أحمد: إن هذه القبائل تحاول أن تأخذ بثأر المخطوفين.
وقرابة الظّهر، بدأت وفود القبائل تصل إلى المكان، وتأخذ مكانها في الساحة المواجهة للشياطين، وأخيراً اكتمل وصول الوفود ... وكان من الواضح أن الجميع قد اتفقوا على قرار واحد؛ قُتل الشياطين الثلاثة.
وبدأت الرقصة الأخيرة ... وأخذ مجموعة من المحاربين يقفزون ويصرخون بحركات غريبة ... وقد أشعل ساحر القبيلة النار في كومة من الحطب، وراح المحاربون يدورون حولها، ويلمسون حطبها المشتعل بأطراف أصابعهم ... وهتفت «زبيدة» في قلق: ما معنى ذلك؟!

أجابها «أحمد»: إنها رقصة الموت ... يبدو أن هذه النار المشتعلة من أجلنا.
تحرك «عثمان» في مكانه بغضب قائلاً: هذا مستحيل ...
ولكنه لم يستطع الحركة ... فقد منعه قيوده من ذلك ... وأيضاً بسبب عشرات الحِراب التي صوّبت إليه من المحاربين ...
همس «أحمد»: علينا ألاّ ننتظر نجدةً من بقية الشياطين ... فمن الواضح أنهم منهمكون في إصلاح الغواصة، ولم يسمعوا صوت الرصاص ... وانتظارنا أكثر من ذلك معناه الموت.

زبيدة: وما العمل؟
أحمد: هل لا تزال سكينتك الصغيرة معك؟
زبيدة: نعم، إنها بين أصابعي، ويمكنني أن أقطع بها قيودي في أية لحظة ... غير أنني أخشى عليكما.

أحمد: إن لديّ خطة ... فبداخل جيبي قنبلة يدوية صغيرة لم يستدلّ عليها هؤلاء البدائيون، فإذا ما استطعت إخراجها من جيبي، وإلقاءها في النار، فسوف تنفجر في المكان، فيصاب الجميع بالذعر، ويسرعون بالهرب ... فنستغل الموقف، ونحل قيودنا، ونبتعد عن هذا المكان.

زبيدة: إنها فكرة جيدة ... سوف أقطع قيودي بدون أن يلحظني أحد.
وفي هدوء راحت «زبيدة» تقطع قيودها بسكينتها الصغيرة، حتى تمكّنت من حلّها تماماً، وتحرّرت يداها ... وبسرعة مدّت يديها بداخل جيب «أحمد» بدون أن ينتبه أحد المحاربين إليها، ثم أخرجت قنبلةً من جيب «أحمد»، وألقته بداخل النار المشتعلة، وانفجرت القنبلة بصوت مدوّ، وحدث ما توقّعه «أحمد» تماماً.
وصرخ الأهالي في فزع رهيب، وأسرعوا يغادرون المكان كالمجانين ... وانتهزت «زبيدة» الفرصة فأسرعت بقطع قيود قدميها ... ثم قطعت قيود «أحمد» و«عثمان» ... وأخيراً تحرّرت الشياطين الثلاثة؛ فاندفعوا يجرون بأقصى سرعتهم بداخل الغابات عائدين من حيث أتوا. ومرت لحظات قليلة قبل أن ينتبه الأهالي البدائيون لما حدث ... وكتشفوا هروب الأسرى الثلاثة ... فأسرعوا في مطاردتهم شاهرين رماحهم ... وقد صدرت إليهم الأوامر من ساحر القبيلة ... بالقتل.

مرة أخرى في الأسر!

اندفع الشياطين يجرون بأقصى سرعتهم، والمحاربون خلفهم ... وأخيرًا لاح الشاطئ من بعيد، وقد أوشكت الشمس على الغروب، وسقطت خلف المحيط.

صاح «عثمان»: فلنسرع بالالتجاء إلى الغواصة والاحتماء بها.

أحمد: أرجو أن يكون بقية الشياطين قد تمكّنوا من إصلاح العيب بها؛ لنتمكّن من مغادرة هذا المكان ... فأهله لا يرغبون في وجود غرباء على الإطلاق.

اندفع الشياطين باتجاه الغواصة ... وما كادوا يقتربون منها ويشاهدها الأهالي البدائيون، حتى ظهر عليهم الفزع الرهيب ... وصرخوا في رعب، ثم ألقوا رماحهم وأسرعوا هاربين بأقصى سرعتهم، وهم يظنون أن الغواصة حيوان بحري رهيب خرج إليهم من قلب الماء.

التقط «عثمان» أنفاسه وهو يقول: هذا حسن ... يبدو أن المطاردة قد انتهت أخيرًا ... أحمد: ولكن، أين بقية الشياطين؟!

زبيدة: لا بد أنهم بداخل الغواصة يبعثون برسالة إلى رقم «صفر».

واندفع الشياطين الثلاثة نحو أبواب الغواصة ... ولكن ... وقبل أن يتحرك أحد منهم، جاء صوت من الخلف يقول: مكانكم وإلا أطلقنا الرصاص.

كان الصوت باللغة الإنجليزية ... والتفت «أحمد» و«عثمان» و«زبيدة» في دهشة إلى الوراء ... كانت هناك ست فوهات مدافع رشاشة مصوّبة إليهم ... وستة وجوه بيضاء تنطق بالشر ...

وتقدّم أحد المسلّحين نحو الشياطين وهو يقول: إن زملاءكم أسرى لدينا ... وأي محاولة منكم للمقاومة تعني موتكم ... وموتهم أيضًا ...

ترامق الشياطين الثلاثة في صمت ... كانت المفاجأة مذهلة لهم تمامًا؛ فلم يتوقعوا بأي حال أن ينجو من الأهالي البدائيين ... ليواجهوا نفس العصابة التي تختطفهم، وتبيعهم كأعضاء بشرية، أو قطع غيار إنسانية.

قال «أحمد» في هدوء: إذن فقد تسللتم خلف غواصتنا بدون أن نشعر بكم؛ حتى جئتم إلى هذا المكان.

- هذا صحيح ... وقد تمكنا من أسر زملائكم بعد معركة قصيرة، وكان عنصر المفاجأة في صالحنا ... هيا سيروا أماننا.

وأشار المسلح إلى زورق بخاري كبير كان يقف أمام الشاطئ، وتخفيه بعض الأشجار ... ونظر «عثمان» إلى «أحمد»، ولكن عيني «أحمد» كانت تقول بأنه من الأفضل الاستسلام حتى يستطيعوا أن ينضموا إلى بقية الشياطين.

وقاد أحد المسلحين الزورق البخاري في قلب المحيط ... وكانت الشمس قد غربت تمامًا، وبدأ الليل يحل على المكان.

توقّف الزورق على مسافة عشر كيلومترات من الشاطئ ... وانشقّ سطح البحر عن غواصة ضخمة تمددت فوق سطح الماء كمارد خرافي يعيش في قلب الماء ...

وانفتحت كوة في مقدمة الغواصة، فأشار المسلحون إلى الشياطين الثلاثة أن يهبطوا إليها ... وفي صمت اتجه الشياطين نحو الكوة، ودخلوها ... وفي الداخل ظهرت الغواصة لهم متسعة كبيرة، وكان هناك عددٌ من الملاحين بداخلها ... وعدد آخر من المسلحين الذين راحوا يتطلعون إلى الشياطين في عدااء ... وتحفّز.

وقاد المسلحون «أحمد» و«عثمان» و«زبيدة» إلى نهاية الغواصة ... ثم فتحوا بابها، ودفعوا الشياطين الثلاثة خلفه ... ثم عادوا وأغلقوا الباب.

وفي الداخل ... كان هناك بقية الشياطين ... «بو عمير» و«مصباح» و«هدى». وهتفت «زبيدة» في راحة: حمداً لله أنكم بخير.

قصّ «عثمان» على بقية الشياطين ما حدث لهم ... ثم تساءل: وأنتم ... كيف وقعتم في الأسر؟

هدى: لقد كنا مشغولين بإصلاح الغواصة، وقد أوشكنا أن نتم مهمتنا، عندما فوجئنا بهؤلاء المسلحين يحاصروننا ... وكانت معركتنا ضدهم خاسرة؛ لأنهم كانوا أكثر عددًا وسلاحًا.

مرةً أخرى في الأسر!

أحمد: إن هذا يفسّر عدم إسرائكم إلى نجدتنا بعد أن أطلق ساحر القبيلة الرصاص من المدفع الرشاش ... ولكن ... هل تمكّنتم من إرسال رسالة إلى رقم «صفر» بما حدث لنا؟

هرّت «هدى» رأسها بأسفٍ قائلة: لم يتسع الوقت لذلك ... فما كدت أنتهي من إصلاح جهاز الإرسال حتى وقعنا في الأسر.

زبيدة: هذا مؤسف ... إن رقم «صفر» لا يعلم شيئاً عن مصيرنا ... إن الحظ السيئ يلازمنا منذ بداية هذه المهمة.

أحمد: بالعكس ... لقد بدأ الحظ يبتسم لنا ... فلولا أن قام هؤلاء المجرمون بأسرنا، لربما انتهت مهمتنا دون أن نصادفهم ... لقد عثرنا عليهم في أسرع وقت، وبدون حتى أن نبحث عنهم ...

تساءل «عثمان»: وأين تظنهم سوف يأخذوننا؟

أحمد: إلى جزيرتهم السرية في قلب المحيط ... هذا ممّا لا شك فيه ... ومرّت لحظات من الصمت ... وبدأت الغوّاصة في التحرك ... والغوص ببطء ... ثم أخذت تشق طريقها في قلب الماء ... ولكن ... وبعد ساعة، عاودت الغواصة طفوها على سطح الماء، وتوقّفت عن الحركة، وتساءلت «زبيدة» في قلق: هل يمكن أن نكون قد وصلنا إلى جزيرة هؤلاء المجرمين بمثل هذه السرعة؟

أحمد: سوف نكتشف ذلك حالاً.

ومرّ بعض الوقت قبل أن يكتشف الشياطين الستة الحقيقة ... فمن نافذة ضيقة في جبرتهم تُطل على سطح الماء ... استطاعوا أن يشاهدوا الشاطئ البعيد لسواحل القارة وقد أضاءه نور القمر ... وكانت هناك سلسلة بشرية طويلة لا يقل عدد أفرادها عن مائة فرد ... كانوا كلهم من الزوجات الأفارقة الشبان، وقد أحاطت بأعناقهم سلسلة حديدية طويلة تربطهم معاً ... على حين أحاط بهم الحُرّاس البيض المسلّحون ... ثم بدأ الزورق البخاري السريع في نقل الأسرى كل عشرة مرةً واحدة.

انتفض «عثمان» غاضباً وهو يقول: هؤلاء المجرمون! ... لقد اختطفوا مزيداً من الضحايا! ... أقسم أن ألقنهم درساً غالياً، وتكون حياتهم هي الثمن.

أحمد: اهدأ يا «عثمان» ... يجب علينا أن نتحلّى بالهدوء إلى أن نصل إلى وكر هؤلاء المجرمين، ولن نسمح بأن يكون هناك مزيد من الضحايا بعد الآن.

ومرةً أخرى، بدأت الغواصة هبوطها إلى قلب الماء، ومواصلة رحلتها ...

وتساءل «بو عمير» في قلق: هل تظنون أننا سنستطيع أن نفعل شيئاً إذا ما وصلنا إلى جزيرة الأعداء ونحن بلا سلاح؟

عثمان: وحتى لو كُنّا بأيدينا العارية ... فسوف نقاتلهم وننقذ الأسرى المساكين.

وقرابة الفجر توقفت المحركات عن الحركة ... وبدأت الغواصة في الطفو مرةً أخرى.

وقالت «زبيدة»: يبدو أننا قد وصلنا إلى محطتنا النهائية.

وأمام الشياطين، تكشفت لهم من النافذة الزجاجية الضيقة، جزيرة كبيرة على مسافة قريبة ... وقد أحاطت بالجزيرة أشجار عملاقة كثيفة تحجب ما يدور بداخلها ... ولم تكن هناك أية سفن قريبة تعبر المكان.

قالت «هدى»: لقد اختار هؤلاء المجرمون مكانهم جيداً بعيداً عن العالم ... فلا يمكن أن يقترب أي متطفل من هذا المكان أو يشك فيه ... ولا بد أن هذه الجزيرة تبعد عن خطوط الملاحة العالمية حتى لا تقع تحت طائلة القانون الدولي.

مصباح: وهذه الأشجار الكثيفة تحجب ما يدور بداخلها.

وظهر من قلب الجزيرة مجموعة من الحُرّاس المسلّحين اتجهوا نحو عدد من الزوارق البخارية فوق شاطئ الجزيرة ... ثم أداروا محرّكاتها وانطلقوا بها صوب الغواصة.

وبدأت الزوارق في نقل الأسرى الأبرياء إلى الجزيرة، حيث كان الحُرّاس يقودونهم إلى داخل الجزيرة لتخفيهم الأشجار الكثيفة عن أنظارهم.

وحان دور الشياطين ... وقام زورق مُسلّح بنقلهم إلى الشاطئ.

وأحسّ الشياطين أنهم يخطون إلى المجهول ... وقد انقطعت بهم كل صلة عن العالم، في مكان تجارته ... هي الإنسان ذاته ... وأعضاؤه البشرية.

فوق جزيرة الشيطان!

اندفع الموكب إلى قلب الجزيرة ... وبعد أن اجتاز حاجز الأشجار الخارجي ... ظهر قلب الجزيرة لمن يطئون أرضها أول مرة ...

كان هناك عدد من المباني البيضاء الواطئة، لا ترتفع أكثر من طابقين ... وقد بدت كأنها مباني مستشفى كبير ... وإلى اليسار ظهر مبنى عريض كان واضحاً أنه منزل الحراس المسلّحين ... وإلى الخلف ظهر مبنى كثيب بلون أسود كالح يمتد بمحاذاة سور الأشجار العريض ... وتحيط به الأسلاك الشائكة والحراس المسلّحون من كل مكان ...

ترامق الشياطين في صمت ... كان واضحاً أن ذلك المبنى الكثيب الشكل هو مبنى السجن، الذي يحتفظون فيه بالبضاعة البشرية ... قبل الاحتياج إلى أحد أعضائها. وقاد الحُراس المسلّحون الأهالي البدائيين إلى السجن، واختفّوا بداخله ... أمّا الشياطين، فقادهم الحُراس إلى أحد المباني البيضاء المتناثرة في المكان، والذي كان يقع خلف محطة توليد كهربائية كبيرة، تستمد طاقتها من البحر.

واستقرّ الشياطين في قاعة واسعة فاخرة ... كأنها قاعة استقبال في أحد الفنادق الفخمة ... ووقف الحُراس بأسلحتهم على جوانب القاعة، ورصدت عيون الشياطين شاشة سينمائية عريضة ... كأنما وجودهم في ذلك المكان بغرض عرض تليفزيوني أو سينمائي ... ينتظر حضور شخصية هامة ...

انفتح باب في مؤخرة القاعة، وظهر شخص أحمر الوجه في معطف أبيض كالأطباء ... وكان يرتدي نظارة طبية وضح فيها أن إحدى عينيّه ... صناعية.

وتقدّم ذو العين الصناعية قائلاً بالإنجليزية: مرحباً بكم فوق جزيرتنا ... يمكنكم أن تدعوني بالدكتور «ماكس».

أحمد: من العجيب أن تكون لك عين زجاجية في مكان صناعته هو استبدال أعضاء الإنسان التالفة.

ابتسم «ماكس» وقال: إنك دقيق الملاحظة أيها الشاب، وقد أخبروني أنكم مجموعة من الشبان الماهرين، ولكننا تمكنا من اقتناصكم بفضل ذكائنا وأجهزتنا الحديثة ... لقد فقدت عيني في حادث سيارة، ولكنني لا أحب أن تكون لي عين غيرها ... فلولاها ما فكّرت في إقامة هذا المكان الذي يحتوي على كل ما يمكن أن يطلبه إنسان ... من قطع غيار بشرية. لقد كانت حادثة السيارة هي طريقي إلى الملايين من الدولارات، والسعادة لكل من فقد عضواً من أعضائه، واستطاع أن يستعيده من خلال مشروعى هذا.

كتم «عثمان» غضباً جارفاً، وقال من بين أسنانه: هل تسمي هذا مشروعاً؟! إنه أبشع عمل يمكن أن يقوم به إنسان.

ماكس: ولماذا؟ ... إنني أقدم خدمةً لكثير من الناس.

أحمد: ولكنك في المقابل تتسبّب في موت آخرين بلا ذنب جنوه.

ماكس: ومن هم هؤلاء الضحايا؟ إنهم بعض البدائيين الذين يعيشون على هامش هذه الحياة ... فيولدون ويموتون بدون أن يشعر بهم إنسان، أو يؤثروا في هذه الحياة، فإذا كانت ولادتهم بلا هدف نبيل ... وهو منح الحياة والسعادة لآخرين على وشك الموت ... آخرين أكثر ذكاءً وتمدُّناً.

أحمد: من المؤسف أننا ونحن في نهاية القرن العشرين نجد بعض الناس يفكّرون بمثل طريقتك. إنه نوع جديد من الاستعمار، ولكنه استعمار بشع جداً ... لقد استعبدتم الأفريقيين ونهبتم أرضهم وثرواتهم، والآن تعودون لتأخذوا حياتهم بلا مقابل غير سعادتهم أنتم ... إن من يستحق الموت هو أنتم وليسوا هؤلاء الأبرياء المساكين الذين لا يملكون دفاعاً عن أنفسهم.

ابتسم «ماكس» ساخراً وقال: محاضرة عظيمة، ولكن لا مكان لها هنا، وعندما تشاهدون هذا المكان والتقدّم العلمي الذي يُسيطر عليه، سوف تدركون عظمة عملنا، ومدى خدمته للبشرية.

وضغط على زرٍّ بجواره، وفي الحال ظهر فوق الشاشة السينمائية فيلم يعرض بعض الأفارقة البدائيين وقد تمدّدوا فوق طاوولات العمليات، وقد راح الأطباء ينتزعون قلوبهم وراثاتهم وُكلياتهم، وحتى عيونهم ... ثم يقومون بحفظ تلك الأعضاء في بنوك من الثلجات، حيث تأخذ طريقها إلى أوروبا أو أمريكا؛ لتستقر في أجساد الأثرياء المحتاجين إليها، أمّا

الضحايا الذين انتزعت أعضائهم، فيتم إلقاؤهم في المحيط ... ليكونوا طعامًا للأسماك المتوحشة.

أغمضت «هدى» عينيها في ألمٍ قاتلة: هذا بشع ... كيف يمكن لإنسان متحضر أن يقوم بمثل ذلك العمل الإجرامي؟!

قال «ماكس» في بساطة: إنه المال. المال الذي يدفعنا جميعًا لأن نعمل، وكنت أظن أن مشروعى سوف يُثير تعاطفكم وتشاركونني فيه.

هَبَّ «عثمان» قائلاً: إنك أحقر مخلوق قابلته في حياتي. واندفعت قبضته مثل طلقة الرصاص لتصيب «ماكس»، فتحطمت نظارته الطبية، ووقع على الأرض.

واندفع الحُرّاس نحو «عثمان» شاهرين سلاحهم، ولكن «ماكس» أوقفهم بإشارة من يده، ولم تعكس عينه الزجاجية مشاعره، ونهض من وقعته هذه ... ثم قال في هدوء: كنت أطمع في تعاونكم معي، وأن تكونوا ضمن رجالي ... ولكنني لا أقبل الإهانة بأي شكل من الأشكال. لقد حدّدت مصيركم بأيديكم ...

وأشار إلى حراسه قائلاً: خذوهم إلى السجن مع الباقين. لمعت عينه السليمة ببريق جنوني، وبصوت رهيب أضاف: سوف تكونون أول من أنتزع أعضائهم اليوم، ولا شك أن ثمنكم سوف يكون مرتفعاً ... وسأشرف بنفسى على إلقاء ما يتبقى منكم إلى الأسماك المتوحشة في المحيط ... فلا يبقى منكم شيء بعدها. واندفع «ماكس» مغادراً المكان ... أمّا الشياطين، فارتسمت في عيونهم نظرات ذاهلة ... وقد أحاط بهم الحُرّاس من كل مكان ... وهم يقودونهم خارج المكان، باتجاه السجن الرهيب، والمصير البشع الذي ينتظرهم ...

المركة الأخيرة!

عندما خطا الشياطين إلى الخارج ... كانوا قد تغلبوا على المفاجأة، واستطاعوا أن يتفوقوا على خطة واحدة بلغة العيون ... بدون أن ينتبه الحراس المسلحون إليهم. وهكذا ... فما كادوا يخطون إلى الساحة الواسعة، حتى تماسكت أيديهم، وفي لحظة واحدة قفزوا إلى الخلف في الهواء ... وقبل أن ينتبه الحُراس إلى ما حدث، اندفعت أقدام الشياطين لُصيبهم، فسقط الحُراس على الأرض، وأسرع الشياطين يلتقطون مدافعهم الرشاشة.

صاح «أحمد» في زملائه: ليذهب «مصباح» و«بو عمير» و«زبيدة» إلى السجن لإطلاق سراح السجناء الأسرى، أمّا نحن فسنتعامل مع بقية الحُراس. واندفعت المجموعة الأولى بقيادة «مصباح» إلى السجن وهي تُطلق رصاصاتها، وبادلهم الحُراس بإطلاق الرصاص من فوق الأسوار، فدار الشياطين الثلاثة حول المبنى، وبقفزة واحدة طاروا فوق أسواره، وصاروا بداخله، وفوجئ الحُراس بالشياطين الثلاثة أمامهم، ولكن دهشتهم لم تدم طويلاً؛ فقد تكفلت رصاصات الشياطين بإرسالهم إلى جهنم.

اندفع الشياطين الثلاثة نحو عنابر الأسرى لإطلاق سراحهم، وهم يحصدون كل من يصادفهم من الحراس ... أمّا المجموعة الثانية، فكان عملها أكثر صعوبة؛ فقد كان عدد الحراس فوق الجزيرة كبيراً، واندفعت أول مجموعة من الحُراس نحو الشياطين الثلاثة، فتلقّاهم «أحمد» و«عثمان» و«هدى» بالرصاص، ثم اندفعت مجموعة أخرى ... وتبعتها مجموعة ثالثة ... وانهال الرصاص على الشياطين من كل جانب، فأسرعوا يحتمون خلف أحد المباني، وقال «عثمان»: «إننا مُحاصرون من كل جانب، ولن تستمرّ مقاومتنا طويلاً. لمعت عينا «أحمد» وقال: إن لديّ فكرة. انتظراني هنا.

اندفع «أحمد» جاريًا ... فصاحت «هدى»: «أحمد» ... إلى أين ستذهب؟! ولكنه لم يلتفت إليها، واندفع يعبر الساحة الواسعة في قلب الجزيرة، وانهاهال عليه الرصاص من كل جانب، ولكن «أحمد» تفاداه بالقفز في الهواء، والارتقاء على الأرض، حتى عبر الساحة المكشوفة، ثم اندفع إلى محطة الكهرباء التي تمتد الجزيرة بالطاقة. وابتسم «عثمان» وهو يقول: لقد فهمت ما يريد «أحمد» ... سوف ينسف محطة الكهرباء، فيشغل الحراس ... وبذلك يقل الحصار حولنا.

واندفعت مجموعة من المسلّحين خلف «أحمد»، ولكن «عثمان» و«هدى» أسرعاً يُصوّبان رصاصاتهما نحو المسلّحين ... ومَرَّت ثوانٍ بطيئة ... قاتلة ... وفجأة دَوَّى صوت هائل، وانبعث شرر كبير من محطة الكهرباء، ثم انفجرت في صوت مدوّ، وتحولت إلى كتلة من نار، وأصاب الذعرُ الحُرَّاسَ المسلّحين، فاندفعوا في كل اتجاه لينجوا بأنفسهم ... وامتدَّت النار من المحطة الكهربائية المتفجّرة، وسقطت فوق بعض المباني القريبة، وصرخ أحد الحُرَّاس: إن الجزيرة تحترق! فلنسرع بالفرار!

وبسرعة انتشرت النار لئُتمسك بالأشجار الاستوائية المحيطة بالجزيرة والرياح تدفعها في كل اتجاه.

وظهر «أحمد»، فتنفّس «عثمان» و«هدى» بارتياح، وقال «عثمان»: لقد تصرّفت في اللحظة المناسبة.

وصرخت «هدى»: إن السجن يحترق! التفت «عثمان» و«أحمد» نحو السجن، فشاهدا النار وقد امتدَّت إليه وحاصرته من جميع الاتجاهات. صاح «أحمد»: إن بقية الشياطين والسجناء بالداخل، فلنسرع بإنقاذهم. واندفع الشياطين الثلاثة يقتحمون النار بلا رهبة، وفي الداخل كانت المجموعة الأولى من الشياطين قد نجحت في تحرير السجناء بدون أن يتمكّنوا من اقتحام النيران.

هتف «عثمان»: فلنسرع إلى الخلف ... واندفع نحو خلفية السجن ... وكانت النار ممسكةً بالأسوار أيضًا من الخلف، وتلفَّت «عثمان» حوله، فلمح جذع شجرة ضخماً كان يُستخدم كمتراس لغلاق الأبواب. وصاح «عثمان»: فلنُحطم السور بهذا الجذع.

وأُسرع الشياطين الستة نحو جذع الشجرة الضخم، ورفعوه من بين أيديهم، ثم دفعوا به السور الحجري الضخم، ولكن السور لم يتزحزح.

وكرّر الشياطين عملهم، وفي المرة الثالثة تهاوى السور المحترق ... وأسرع السجناء والأسرى يغادرون سجنهم، وقد تسلّحوا بكل ما وصلت إليه أيديهم من أسلحة.

المعركة الأخيرة!

وفي الخارج كان «ماكس» واقفاً في جنون، وقد تحوّلت جزيرته إلى كتلة مشتعلة من النيران.

صاح «ماكس» في رجاله: اقتلوا هؤلاء الشياطين! فاندفع ما تبقي من المسلّحين نحو الشياطين والسجناء، وقبل أن يتمكّن الحُرّاس المسلّحون من استخدام أسلحتهم، اندفع الأسرى نحوهم، ودارت معركة رهيبة لم ينجّ منها أحدٌ من الحُرّاس ...

تراجع «ماكس» ذاهلاً، ولكن ... لم يكن هناك أي ملجأ يهرب إليه، وقد حاصره الأسرى الذين التمعت عيونهم بكراهية بالغة، ثم انقضّوا عليه وراحوا يضربونه، وهو يصرخ مستنجداً، إلى أن خفّ صوته، ثم تلاشى تماماً ... راقب الشياطين المنظر في صمت وبلا مشاعر.

قالت «هدى»: لقد نال هذا المجرم جزاءه!

بو عمير: لم يعد هناك ما نفعله فوق هذه الجزيرة ... فلنسرع بمغادرة المكان. واتجه الشياطين إلى الشاطئ ... وهناك كانت مفاجأة تنتظرهم؛ فقد تمكّن بعض المسلّحين من الوصول إلى الغواصة، وبدءوا يستعدّون للإبحار بها. تلقّت الشياطين حولهم غير مصدقين. كان هرب بقية أفراد العصابة بالغواصة معناه بقاء الشياطين فوق الجزيرة إلى الأبد، بدون أن يدري أحد عن مكانهم شيئاً، ولا حتى رقم «صفر»!

اندفع الشياطين نحو الغواصة، وتمكّنوا من دخولها قبل غلق أبوابها، وبعد معركة قصيرة استطاعوا الاستيلاء عليها، والتخلّص من كل ما تبقي من رجال العصابة! أشار «أحمد» للأسرى من الأهالي البدائيين، فأسرعوا إلى الغواصة في الوقت الذي تعالى فيه اللهب من الجزيرة المشتعلة وكأنها جرة نار. وأغلقت الغواصة أبوابها ... ثم بدأت في الغوص في قلب الماء ...

تساءلت «زبيدة» والغواصة الضخمة تشق طريقها في قلب المحيط: أين سنذهب الآن؟ أحمد: علينا أولاً أن نعيد هؤلاء الأهالي إلى المكان الذي اختطفوا منه ... مصباح: لقد علمت منهم أنهم يعيشون في نقطة الحدود ما بين «غانا» و«توجو». أحمد: حسناً ... سنذهب بهم إلى هناك، وبعد ذلك سنذهب إلى غواصتنا فوق ساحل «غينيا بيساو» فنعود بها إلى بلادنا.

بو عمير: وهذا الغواصة التي استولينا عليها، ماذا سنفعل بها؟

أحمد: ما رأيكم أنتم؟

تأمل «عثمان» الأهالي البدائيين الذين أحاطوا بهم، وعيونهم مليئة بالشكر، وهم يتحدثون بلغات هي خليط من اللهجات الأفريقية ... وقال «عثمان»: لدي فكرة؛ هذه الغواصة التي استولينا عليها تساوي عشرات الملايين ... فإذا طلبنا من رقم «صفر» أن يبيعها لأي دولة صديقة، على أن يُستغل ثمنها في الإنفاق على هؤلاء البسطاء، بإقامة منازل حديثة لهم، وتوفير سبل معيشة أفضل ... وتقريبهم من العالم المتمدّن، وإرسال بعثات طبية وتعليمية إليهم ... إن هذا يكون أقل تعويض ممكن لما لاقاه هؤلاء المساكين من ظلم وعدوان عليهم.

قال «زبيدة» في حماس: فكرة رائعة.

ووافق بقية الشياطين، وبعد وقت وصلت الغواصة إلى الشاطئ الذي اختطفت منه الأسرى، وطفّت الغواصة فوق سطح الماء على مساحة من الشاطئ، وما إن رأى الأسرى شاطئ بلادهم وهم يعودون إليه، حتى قفزوا في سرور وسعادة، وأسرعوا يقفزون من الغواصة إلى قلب الماء، ويسبحون إلى شاطئهم، وهم يُلوحون بأيديهم للشياطين، على حين كان بقية الأهالي قد تجمّعوا على الشاطئ، وهم لا يُصدّقون عودة أسراهم المختطفين. ومرةً أخرى غاص الشياطين بالغواصة الكبيرة، ثم اتجهوا إلى مكان غواصتهم الصغيرة، وعلى مسافة من مكانها ظهرت الغواصة على سطح الماء.

وقفز «عثمان» و«مصباح» إلى الماء، وسبحوا حتى مكان غواصة الشياطين الصغيرة، وما كادوا يدخلون إلى قلبها حتى كانت هناك رسالة في انتظارهم على جهاز الاستقبال بداخلها، وكانت الرسالة تقول: «تهنئتي بنجاح العملية. إن القارة الأفريقية كلها مدينة لكم بالشكر.»

وانتهت الرسالة التي كان مرسلها هو رقم «صفر» ... وألقى الشياطين نظرةً أخيرة إلى الشاطئ، قبل أن تختفي بهم الغواصتان في قلب المحيط ... وقد ملأت السعادة قلوبهم.

